

## انطباعات من أوروبا ومن هيئة الأمم المتحدة<sup>(١)</sup>

كنت معتزماً منذ الصيف الذى أمضيته فى بلاد الشام، فى فلسطين وسوريا ولبنان — أن تكون رحلتى فى الشتاء إلى السودان . لكن تحديد اللجنة التحضيرية لهيئة الأمم المتحدة فى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر اليوم العاشر من شهر يناير بعده موعداً لانعقاد الجمعية العامة الأولى لتلك الهيئة من ناحية، وتوقانى إلى « الانغماس » فى البيئات الدولية التى استمرت اجتماعاتها فى مؤتمرات الصلح والاقتصاد وتزع السلاح ودورات عصبة الأمم خلال ربع القرن المنقضى والتى حرمت منها أطول من ست سنين من ناحية ثانية، دفعا بى فحاة من اتجاه الجنوب على دفعه إلى اتجاه الشمال على برده، وقضيت الثلاثة الأسابيع الأخيرة من يناير وشهر فبراير والأسبوع الأول من شهر مارس فى لندن وبروكسل وباريس أزور هذه للمرة الأولى بعد الحرب، وبعد غيبة اثنتى عشرة سنة عن الأولى، وست سنوات ونصف السنة عن الثانية والثالثة وقد تتبعت طوال إقامتى فى لندن اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ولاحقت أعمال مختلف مجالسها ولجانها، وحضرت فى بروكسل يوم الانتخابات البلجيكية العامة وما سبقه من خمسة الأيام الأخيرة من فترة الحملة الانتخابية، وزرت باريس أو أدت فيها مناسك حجى إلى كلياتها الجامعية والدستورية والفنية وما يتخللها من تيارات اجتماعية منبعثة من حركات المقاومة والتحرر وإعادة التنظيم . ثم عدت بعد ذلك كله بانطباعات عن ثلاث من دول أوروبا الغربية يعملن فى

(١) أعجبت مدة إقامتى فى العراق ببعض تعبيرات يجرى بها الاستعمال هناك وتدل على معانيها دلالة أقوى من دلالة معانى مقابلاتها فى الاستعمال المصرى أو الشامى، وبينها التعبير بـ « الانطباع » للدلالة على الأثر الذى يتركه المشهد أو الحديث فى النفس، فأثرت استعماله اليوم ترجمة لكلمة Impression الفرنسية أو الإنجليزية .

سبيل التغلب على ما أصابهن من ويلات الحرب ، وعن هيئة الأمم المتحدة التي تحاول إقامة العلاقات الدولية على أسس جديدة .

أما العواصم الثلاث فقد تجلّى لى خلال ما شهدت فيها وماخبرت أن الإنجليز والبلجيكين والفرنسيين قد أنهكت الحرب أجسامهم ونفوسهم إنها كما في عموم وإن كانت نسبة هذا الإنهك وأثره في القدرة على رد الفعل يختلفان عند كل فريق باختلاف ملابسائه . وقد كانت هذه الحرب هي الأولى التي تفاجئ الإنجليز في جزيرتهم بعد قرون كانت الحروب التي ساهموا فيها طواها تقع خارج ديارهم . وكانت هي الأولى التي تستعمل فيها القذائف الموجهة التي تصيب الناس من حيث لا يعلمون . وكانت هي الأولى التي تكشف فيها للفرنسيين أنواع وأنواع من كوامن الفوضى والتواكل والاتزلاق إلى مهاوى الخيانة التي كان سوسها ينخر في عظامهم قبل الحرب ذاتها بشهور وسنين . وكانت هي الأولى التي ذاق فيها البلجيكيون مرارة القسوة « النازية » المنظمة وإن لم تكن هي الأولى التي عرفوا فيها نكبات الاحتلال الأجنبي . ولذلك فقد كانت أعصاب الإنجليز هي التي تأثرت ، وكانت نفسية الفرنسي هي التي مُسّت ، وكان البلجيكي هو الذي عملت « مناعته » ، التي اكتسبها من تعاقب الاحتلالات ، على أن يكون أسبق من زميليه إلى العمل والاستعادة .

لاح لي الإنجليز خلال الأسبوع الأول من إقامتي في لندن أن قد أصابهم جميعاً « مس » . أولئك المتحجرون يكثرون تحريك أيديهم والتلويح بأذرعهم ، وأولئك المتعدون يتجهون يميناً ويصححون بعد لحظة اتجاههم يساراً ، يخرجون من الفندق ثم يدخلون إليه مع لفات الباب الدائر . وهم مع هذا وذاك وعلى مقدرتهم على الاحتمال بدءوا يتيهون في دياجير القلق على مستقبلهم ، وبدءوا يتأخمون اليأس من استرداد رخائهم ، بل بدءوا يلمسون ما يتهددهم من حرمان على ما يطلب إليهم توفيره في الانتاج لكن ليكون محل تصدير يستهلكه الأجنبي في الخارج على مسيس حاجة الإنجليز إليه في الداخل . وهم من أجل ذلك قد أخذوا يتساءلون : « هل من ضرورة للعمل ؟ وهل من مصلحة في بذل الجهود ؟ » . وبينما هم يعتمدون في استئناف نشاطهم على « القرض الأمريكي » ، إذا ببعضهم يدعو الله ألا تقر الولايات المتحدة طلب القرض ؛ لأنهم يعتقدون أنهم به وبعده سيصبحون عبيداً للأمريكيين على حين هم يؤمنون بنوع من المعجزات

قد يدركهم وينشلهم من وهدتهم . وفي انتظار المعجزات تبذل الحكومة الإنجليزية جهوداً جبارة في سبيل التفاهم السياسي ، أو في سبيل النفوذ السياسي عن طريق التفاهم حيث لا يجدى طريق العنف ، مع البلاد التي تحسبها لازمة لها لزوماً اقتصادياً . وإذا كان شيء من التميز بين سياسة العمال الذين يتولون الآن الحكم في إنجلترا وسياسة المحافظين التي كانوا يتولونها قبلهم لا يستبين في وزارة الخارجية البريطانية ، فإن تباين السياسة الاقتصادية والاجتماعية بين الناحيتين منجل في وضوح . والعمال ملحون في « تأميم » أكثر ما يستطيعون من وسائل التداول والإنتاج . وقد فرغوا من تأميم بنك إنجلترا ، وهم يجردون الآن في سبيل تأميم مناجم الفحم ووسائل النقل الحديدية والبرية والبحرية والجوية . والواقع أن ميلاً إلى اليسار يتضح في البيئة الإنجليزية على العموم ، وإن كان هذا الميل لم ينجح بعد في تقريب مسافة الخلف بين الشيوعيين والاشتراكيين . وقد حدث أن تقدم الحزب الشيوعي لحزب العمال بطلب اندماج الهيئتين في منظمة واحدة عن طريق انضمام الشيوعيين إلى حزب العمال ، فرفض العمال الطلب — وكان رفضهم هذا للمرة الثامنة في تاريخ محاولات التوفيق بين الجانبين — معلنين أن خير ما يتبقى للشيوعيين « إنما هو أن يحلوا حزبهم وأن يتقدموا أفراداً بطلبات انضمام ينظر مجلس إدارة حزب العمال كل واحد منها على حدة » . لكن الشيوعيين لم يياسوا وهم يعتبرون هذا الرفض صادراً عن اللجنة الإدارية لحزب العمال وحدها ، وسيعرضون الأمر على مؤتمر النقابات — وهو مؤتمر حزب العمال العام — حين ينعقد قريباً .

وأما في باريس فالذي شاهدته لأول وهلة إنما هو الصخب وإنما هو الضجر . فلم أسمع غير شكوى ، ولم أنصت إلا إلى تفكير في مغادرة البلاد إلى « أميركا الجنوبية » . على أنك إذا حلت الشكوى وجدتها شكوى نظرية يشترك الشاكي في المسؤولية عن الشكوى التي يضح بها . فالضحيج يعلو من « السوق السوداء » ، لكن هذا الضحيج يصحبه في الوقت عينه عرض لأصناف تجلب من السوق السوداء . وإنه ليخيل لك — وقد خيل لي بالفعل — أن فرنسا كلها « سوق سوداء » يشترك فيها الفرنسيون جميعاً ويشكون من قيامها جميعاً . . . وإذا كانت السوق السوداء لا يخلو منها بلد من بلاد أوروبا في هذه الأوقات فإنها في فرنسا تقوم تحت حماية السلطات العامة ، وأكاد أقول وباشتراك هذه

السلطات أيضاً ، في حين أنها في إنجلترا تعرّض المقرب منها لأقسى أنواع العقاب .  
 وحادثان اثنان وقعا قبيل سفري من باريس بيومين اثنين ، يكفیان للدلالة على  
 ما انحدرت إليه الأحوال هناك . فقد قبض على عديد من الرؤساء في محافظة  
 باريس متهمين بالاتجار برُخص القيادة والنقل وما إليها من إطارات للسيارات  
 الصغيرة والكبيرة ، وحدث في اليوم عينه أن دقت النواقيس في عاصمة  
 « بريتاني » إعلاناً لسر كان متفقاً عليه هو أن موعد القطار الذي يحمل مندوبي  
 مصلحة الضرائب والمراقبة الاقتصادية المكلفين بالتفتيش على حسابات التجار  
 من أجل تحديد أرباحهم الاستثنائية قد حل . وإذن فقد هرع التجار ومن إليهم  
 من أهل المدينة إلى محطتها وحاولوا بالقوة دون زول أولئك المندوبين من القطار  
 وأكروههم على العودة من حيث أتوا ، دون أن يمكنوهم من تأدية واجبهم ؛  
 لأنهم لا يريدون أن يدفعوا ما يفرضه القانون على أرباحهم الاستثنائية  
 من ضريبة .

وإذا كانت مظاهر الفوضى هي البادية خلال مثل تلك المواقف بين  
 الفرنسيين فإن في العاصمة الفرنسية مكانا يشع منه نور يرى فيه الناس دلالة من  
 دلالات الأمل في قرب انتظام الأمور ، وهو مقر مجلس النواب الذي تجتمع  
 فيه الجمعية التأسيسية التي تمضى مسرعة في وضع الدستور الجديد الذي سينبثق  
 منه استفتاء جديد تتلوه انتخابات جديدة تقوم على أثرها هيئة نيابية جديدة .  
 وقد عملت الجمعية التأسيسية حتى الآن بروح التغلب على كل صعوبة تقوم في  
 وجه التوفيق بين مختلف وجهات النظر ، وإن كان البادي هناك أن تيار الاتجاه  
 إلى اليسار يكاد يكون جارفاً .

على أن الباريسي وسط كل تلك الكوارث التي داهمته لم ينس خاصيته ، ورغم  
 حرمانه المادى لم ينس غذاءه الفنى ؛ فالمسارح غاصة والمقاعد فيها مبيعة إلى  
 أسبوعين ، ولو أن دور اللهو التي كانت متفشية في باريس قد هجرت ، والحكومة  
 تضيق الآن عليها الخناق فتفرض عليها الضرائب باهظة وتحدد ساعات قليلة  
 لنشاطها . لكن المعارض الأدبية والفنية متتابعة ، ودور الموسيقى محل إقبال  
 لا مثيل له ، وكذلك المحاضرات والمكاتب . . . ثم إن « السوربون » لا تزال  
 هي « السوربون » !

أما بروكسل فتختلف الحياة فيها اختلافاً بيناً عن لندن وباريس . فأهلها

تنطق معنوياتهم بحب العمل وبالإقدام في سبيل الإنتاج لأجل هناءتهم وهناءة بلادهم . وقد كان لبلجيكا حظ اتصالها بالأميركيين عند التحرر ، فقامت لهم بأعمال حربية وأدت لهم خدمات اقتصادية ، أصبحت من جرأها دأئة للولايات المتحدة ، بل الدأئة الوحيدة للولايات المتحدة ، فكسبت عطفها وجاءتها البضائع الأميركية والمواد الغذائية الأميركية تترى ، فانتعشت الحياة الاجتماعية فيها وأصبحت بروكسل تغص مطاعمها بالآكلين و « مبايرها » بالشاربين ، وأصبحت حوانيتها أهلة بأدوات الاستهلاك الضرورية والمترفة أيضاً .

على أن هذا الهناء المعنوى والرخاء الاقتصادي يشوبهما ارتباك سياسى له مضاعفة اجتماعية . ويرجع الارتباك السياسى الذى تجلب خلال الانتخابات العامة إلى موقف الأمة البلجيكية من الملك ، وقد اتضح أن « الفاسك » يريدونه وأن « الفالون » لا يريدونه ، وأن الاشتراكيين والشيوعيين أنفسهم لا يعادون « الملكية » فى ذاتها بل يريدونها نظاماً لبلجيكا ، لكن شخص الملك هو الذى يعارضونه . وقد أدى هذا الارتباك إلى قيام أزمة تأليف الوزارة المنبعثة من الانتخابات الجديدة مدة طويلة . وأما المضاعفة الاجتماعية فستندة إلى ما يبدو من منافسة قوية بين الاشتراكيين والشيوعيين . وهم مضطرون لأن يتعاونوا لمقاومة أحزاب اليمين وإن كانوا فى تعاونهم يتكارهون .

تلك هى الانطباعات العامة التى أعود بها من العواصم الثلاث عن حالات الدول الثلاث . أما هيئة الأمم المتحدة ، فقد كان الطباع الأسبوع الأول من أسابيع دورتها الأولى التى دامت من العاشر من شهر يناير إلى السابع عشر من شهر فبراير الطباع أمل وثقة . ذلك بأنه كان أسبوع الخطب التى انطوت على الترحيب بالمولود الجديد ، وتضمنت الوعود بالعمل لخير العالم الجديد . لكن ما كاد ذلك الأسبوع الأول ينقضى وما كادت المجالس واللجان تتناول أعمالها حتى لاح فى الأفق أن « الليلة شبيهة بالبارحة » وأن « الأمم المتحدة » لا يميزها عن « عصبة الأمم » إلا أن المناقشات تجرى فيها علنية . أما الرغبة فى سيطرة « العظميات » على الصغيرات فواحدة ، وأما الخلافات على هذه السيطرة وما يراود وراءها من نفوذ فواحدة ، وأما سياسة وخز الإير فواحدة ، وكذلك التلويح بطريقة التفاهم على حساب الغير واحد .

لكن العلنية التي تمتاز بها « الأمم المتحدة » قد كان من شأنها أن جعلت مناقشاتها في متناول المفكرين بمجرد حصولها ، فكنهم ذلك من التعليق عليها في حينها . ويلوح لي أن سيكون لهذا الوضع أثره في دفع « العقليين » في مختلف البلاد إلى الإحساس بأن عليهم أن يرفعوا فكرة التعاون العالمي وأن يحولوا دون تفكير صفوها من جانب الطامعين النهمين من رجال الحكم .  
وسيكون هذا طريق السلامة .

محمد عزمي